

مقدمة معجزة القرآن فك آية النحل

قال الله تعالى في كتابه الحكيم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۚ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِن فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾

إن هاتين الآيتين تتضمنان معانى كبيرة لم يسبق ذكرها فى الآيات القرآنية الأخرى ، فقد بدتنا بوحى الله للنحل حيث لم يذكر وحيه « سبحانه وتعالى » لأى من الكائنات غير المكلفة الأخرى ، وختمتا بأن فيهما آية لقوم يتفكرون ، فتدعوان المختصين إلى التفكير أى التدبر والتمعن والتأنى فى التفكير فى معانيهما لإظهار حقيقة القرآن ومصدره من عند الله العليم الخبير .

فهل كان لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن يكتب عن النحل أية فكرة علمية منذ ١٤٠٠ عام حين لم يعرف عن النحل شيء ! إن التفسير العلمى الدقيق لآيات النحل يؤكد أنها ليست من تأليف بشر أياً كانت بصيرته ، لأن فيها معانى لم تعرف إلا فى العصر الحديث ، فلا بد أن قائلها يعرف أسرار وسلوك وفوائد النحل قبل أن يعرفها الإنسان ، فلن يكون قائلها إلا الله خالق النحل وكل ما فى الكون ويكون فى هذه الآية دليل مادى على وجوده سبحانه وتعالى .

إن آيتى النحل اللتين تبدوان بالنظرة السطحية أنهما تسمردان ما هو معروف لدى العامة عن حياة النحل ، بأنه يسكن فى الجبال والأشجار والعشوش والخلايا ، ويأكل من الثمرات ليخرج العسل الذى تعالج به بعض الأمراض ، وكل هذه المعانى كانت معلومة قبل نزول القرآن ببضعة آلاف من السنين ، لو تعمقنا فيهما لظهر لنا أن ترتيب الجمل فيهما ، وكل كلمة بل كل حرف منهما ينطبق تماماً مع الحقائق التى لم تعرف إلا بعد عام ١٨٥١ حين اكتشف القسيس الأمريكى لنجستروث ، أن النحل يترك دائماً مسافة معينة ثابتة بين أقراص الشمع التى يبنها لكى تسمح بمروره بينها وعلى أساسها صمم الخلية ذات الإطارات المتحركة ، والتى مازالت تعرف باسمه حتى الآن ، فأتاحت دراسة حياة النحل وسلوكه حتى عرفت عنه أشياء عديدة أمكن تطويرها واستغلالها .

إن هاتين الآيتين المعجزتين يعجز علماء النحل في العصر الحالي أن يكتبوا مثلهما بهذا الأسلوب المتقن الذي فهمه واقتنع به أهل البدو منذ أربعة عشر قرناً من الزمن ، وفي نفس الوقت تابعان حقائق العلم الحديثة حيث تشيران إلى فطرة النحل التي لا تقل عن ذكاء الإنسان وتفوقه على جميع الكائنات النباتية والحيوانية ، وسلوكه أثناء التطريد ومصادر القيمة الشفائية للسوائل المتباينة التي تخرج من جسمه وهي العسل والغذاء الملكي والشمع والسم ، التي ثبت لكل منها فوائد علاجية من أمراض مختلفة ، وما زالت تظهر لكل منها فوائد متعددة كلما تعمق العلماء والمختصون في دراستها .

حقاً إنها لمعجزة في القرآن جاء بها الله سبحانه وتعالى لتكون دليلاً مستمراً على أن القرآن ليس من تأليف بشر ، ولكنه كلام الله الخالق العليم الذي نزله على رسوله سيدنا محمد ﷺ .

وبما أن لكل نبي معجزة يجب أن يأتي بها لكي يصدقها الناس ، فإن معجزة محمد هي القرآن يظهر فيه دقة التعبير عن حقائق الأمور التي تكتشف على مر العصور لتكون دليلاً على أنه كلام منزل من عند الله يظهر تفسيره على لسان بعض عباده .

وقد كانت معجزات الأنبياء السابقين ملموسة ، إذ أن قوم كل نبي كانوا يرون تفوقه على مانبغ فيه أكثرهم قدرة وعلمًا .

فكانت معجزة إبراهيم عليه السلام أن أنجاه الله من الاحتراق بالنار بدون أن ينزل عليها المطر ليطفئها كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

ومعجزة موسى عليه السلام أن تمكن بعصاه أن يشق البحر لينجو وأهله من عدوان فرعون ، كما جاء في القرآن الكريم قوله ﴿ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ... ﴾ .

وكانت معجزة عيسى عليه السلام أنه كان يشفي الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .

أما معجزة خاتم الأنبياء فيجب أن تكون مستمرة لكي تعيد للنفس الإيمان كلما حيا على مر الزمان ، وقد تحقق هذا في القرآن .

ومعجزة القرآن تختلف عن معجزات الرسل السابقين .. كما جاء في التفسيرات المثقنة الشيعة الممتعة لفضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوي ... معجزات الرسل خرفت نواميس الكون وقوانين الطبيعة أي أنها معجزات كونية ملموسة ، من رآها آمن بها عن بينة ، ومن لم يرها صارت عنده خيراً إن شاء صدقه وإن شاء لم يصدقه

وحيث أن كل رسول من عند الله يأتي مصدقا أو متمما لمن حيا قبله ، فقد ذكرت أنباء كثير من الرسل السابقين في القرآن الكريم فأصبح المسلمون يصدقون بهم .

أما محمد خاتم الأنبياء ، فلكى يستمر الإيمان بما جاء به فيجب أن تستمر معجزته في التأثير وأن تكون هذه المعجزة عقلية تسائر التطور الذى يطرأ على البشرية ، والقرآن يحقق هذه المعجزة الأزلية ؛ فعلاوة على بلاغته التى بهرت أهل عصر الرسول حتى صدقوا به ، فإن بيانه لا يزال مستمراً حتى قيام الساعة .. وآية النحل إحدى معجزات القرآن ... التى يوجد مثلها الكثير ولا يمكن أن يكتشفها ويظهرها إلا العلماء المتخصصون فى مجالات العلوم المختلفة

وحيث أن معانى القرآن وبلاغته وإعجازه مستمرة مع تطور مظاهر الحياة وتجدد الاكتشافات ، فقد حفظه الله بنصه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وأمر المؤمنون أن يحفظوه بلغته ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ .

ولا يترجم القرآن لأى لغة غير عربية إلا لتفسير معانيه فقط وليس لكى يحفظ أو يقرأ بهذه اللغة ، لأن دقة الترجمة إلى أية لغة تعتمد على ما يفهمه المترجم ، وفى هذه الحالة قد تبدو بعض المعانى سطحية وقد يصعب تفسير بعضها ، وفى هذه الحالة قد تطمس إعجازات القرآن .

والمعنى السطحية الظاهرة فى آية النحل تسرد الواقع المعروف عن النحل منذ خلق الله الإنسان وأهمه أن يجمع منه العسل للتغذية عليه والتداوى به ، وفيها دليل على قدرة الخالق فى إكساب النحلة (وهى

حشرة ضعيفة) قدرة على تحويل غذائها إلى سوائل شافية للناس .
ولكن بتوالى الاكتشافات وكثرة المعلومات عن النحل فى العصر
الحديث ، ظهر فى هذه الآيه إعجازات علمية ولغوية وطبية تفوق
هذا المعنى السابق ، إذا تفكرنا فيها بعين العالم المختص ، بينما تبدو
معانيها متناقضة وجملها ركيكة مليئة بالأخطاء إذا تمعنا فيها ونحن
مكتفون بالأفكار السطحية ، وعلى ذلك فهذه الآيه لا تشمل فقط
على قدرة الله سبحانه وتعالى على خلق النحل وإنتاجه العسل من
بطونه ، بل تتضمن ما هو أكثر من ذلك بكثير ، لاسيما وأنها قد
بدئت بوحى الله سبحانه وتعالى للنحل ، واختتمت بأن فيها آية لقوم
يتفكرون ، وينطبق عليها قوله سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ
الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ
مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي
الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

والآيات المحكمات هى التى لا تحمل تأويلاً ولا اشتباهاً ، مثل آيات
التحريم والتحليل والوعد والوعيد والثواب والعقاب وآيات القصص
وضرب الأمثال وآيات الفرائض والحدود ونحوها ، مما كان دليلاً واضحاً
وميسوراً ، وهذه يضمها معظم القرآن الكريم . ولذلك عبر عنها الله
بأنها أم الكتاب ، أما الآيات المتشابهات فهى التى تحمل التأويل

والاشتباه ويصعب فهمها ، وقد تفسر بما ليس مقصودًا منها ، وقد يصفها المغرضون بالضعف ، وكلا النوعين المحكم والمتشابه من عند الله الذى لا يخفى عليه شئ .

ولعل الآيات المتشابهات التى كانت تبدو غامضة وقت نزول القرآن الكريم ، تتضمن أسرارًا عميقة أو وصفًا دقيقًا لبعض الظواهر الطبيعية التى لم تكن معروفة آنذاك ، ولا يزال بعضها غامضًا حتى وقتنا الحالى .

ومن الأمثلة الحية على هذا التفسير آية النحل فى القرآن الكريم التى تتطابق حرفيًا مع اكتشافات العلم الحديث بعد أربعة عشر قرنًا من نزول القرآن ، ومن المتوقع أن يتوالى تفسير جميع الآيات المتشابهات طالما استمرت الاكتشافات ، وبذلك يتجسم إعجاز القرآن فى لغته ومعانيه ويتجدد به الإيمان على مر العصور والأزمان .

وقد قرأت آية النحل بنفسى مئات المرات وتعدت أن أتلوها على طلابي عند افتتاح محاضرات علم تربية النحل فى كل عام ، ولكنى كنت دائمًا عندما أتلوها غيبًا أخشى أن أخطئ فيها لعدم تسلسل جملها مع المعنى الدارج المعروف ، علاوة على بعض الاستفسارات التى تثار إذا تمعنا فيها ، وعلى سبيل المثال :

١ - لماذا كرم الله النحل وحده من الكائنات غير المكلفة ، حيث خصه سبحانه وتعالى بوحيه ، فهل يستحق النحل كل هذا التكريم ؟
ولماذا ؟

٢ - لماذا لم ينسب هذا الوحى إلى لفظ الحلالة (الله) وهو المعبود
وإنما نسب إلى « ربك » أى خالقك ؟

٣ - لماذا جاء الكلام عن النحل فى صيغة التأنيث ، بينما كان
الأمر للنمل مذكراً فى سورة النمل ؟

٤ - لماذا لم يستعمل حرف « فى » بدلا من حرف « من » حين
قال سبحانه وتعالى :

﴿ اتَّخَذَى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

التي تعنى أن النحل يسكن فى الجبال وفى الشجر وفى العشوش ؟
٥ - ما أهمية ذكر مساكن النحل حيث أن نفس الأماكن (الجبال
والشجر وما يعرشون) تقطنها معظم الكائنات التي تعيش على الأرض
من حشرات وطيور وزواحف وأنعام وقرود ووحوش وإنسان ؟

٦ - لماذا بدأت جملة « كلى من كل الثمرات » بحرف العطف
« ثم » التي تعنى الترتيب مع التراخى أى بعد مدة زمنية ، ولماذا لم
تبدأ بأحد حرفى العطف الآخرين « الواو أو الهاء » ؟

٧ - كيف يأكل النحل من كل الثمرات ومنها الحلو والمر ومنها
اللين والصلب ، والمعروف أنه يأكل من الأزهار ولا يقرب الثمرات
إلا إذا كانت حلوة الطعم وعصيرها مكشوف ، لأنه لا يستطيع أن
يجرح أو يثقب غلاف الثمرة مهما كان ضعيفاً ؟ وذلك بخلاف

ما جاء فى معظم التفسيرات السابقة بأن النحل يأكل من الثمار حلوها
ومرها .

٨ - ما أهمية وصف ما يأكله النحل (من كل الثمرات) مع أن
الثمار تأكل منها الحشرات الضارة والطيور فتتلفها وتفسدها ، فإذا
كان النحل يأكل من الثمرات كما تأكل هذه الكائنات لأصبح مفسدًا ،
ولو كان يجمع عصيرها من البساتين لأصبح سارقًا ، ولا تليق ولا تجوز
أن تكون هذه الصفات نابعة من وحى الله .

٩ - جملة ﴿ فاسلكى سبيل ريك ذللاً ﴾ التى معناها المفهوم هو
قدرة النحل على الطيران فى أجواء السماء تستدعى كثيراً من علامات
الاستفهام :

(أ) إذا كان معناها ذلك حقاً فكيف جاءت بعد جملة ﴿ ثم
كلى من كل الثمرات ﴾ ؟ والمفروض أن تسبقها لأن النحل يطير باحثاً
عن غذائه ثم يأكل منه .

(ب) لماذا بدأت بحرف العطف « الفاء » التى تعنى الترتيب مع
التعقيب ؟

(جـ) لماذا لم تنسب كلمة السبيل فيها إلى لفظ الجلالة (الله) ،
وإنما نسبت إلى رب النحل أى خالق النحل ؟

١٠ - ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ

للناس﴾ فيها استفسارات كثيرة :

(أ) كيف جاءت هذه الجملة بعد الجملة التي تفيد سلوك النحل سبيل ربّها إذا كان المقصود بمعناها الطيران ؟ والمعروف أن النحل يخرج من بطنه العسل وغيره بعد أن يأكل وليس بعد الطيران .

(ب) لماذا لم يذكر صراحة أن العسل هو الذي يخرج من بطون النحل كما جاء أن اللبّين يخرج من الأنعام ؟

(ج) لماذا وصف ما يخرج من بطون النحل بأن « فيه شفاء للناس » مع أنه عند نزول القرآن على الرسول عليه الصلاة والسلام كانت معظم استعمالات العسل للغذاء ولم يوصف للعلاج إلا في حالة الارتبكات المعوية ، بينما لم يأت ذكر النباتات الطبية في أى من الآيات القرآنية مع أن استعمالها كان يفوق استعمال العسل في التداوى ؟

(د) مع أن العسل لم يذكر في هذه الآية فلم يأت ذكره في أى من الآيات القرآنية إلا عند وصف الجنة ضمن قوله تعالى : ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [١٥ من سورة محمد] .

﴿وَيُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتومٍ﴾ [٢٥ من سورة المطففين]

والمعروف أن العسل (فى الحياة الدنيا) هو رحيق الأزهار بعد أن ينضجه النحل ويختمه بالشمع .

١١ - «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» معناها أنه عند التعمق في التفكير في هذه الآية يبدو واضحًا صدق نبوة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأن القرآن الكريم ليس من تأليفه بل من عند الله الذي خلق جميع الكائنات ويعلم خفاياها ، فهل يمكن ذلك حقًا ؟

نرجو أن يوفقنا الله .

إن التقدم الهائل للعلوم في القرن التاسع عشر وما تلاه من قفزات واسعة ومرتفعة ، هزت التكوين الروحي للإنسان في فترة من الزمان ، وجعلت بعض العلماء لا يفكرون إلا في المادية الملموسة ، وأنكروا وجود الله أى وجود خالق لهذه الحياة معتمدين على نتائج للعلم لم تكن بعد مكتملة، فوجود الله خالق هذه الدنيا لم يمكن إثباته كما لم يمكن نفيه بالعلم حتى الآن ، ولكن بالتفسير العلمي الدقيق لآيتي النحل نخرج بدليل مادي ملموس على وجود الله الذى خلق كل شيء وأحسن تقديره ؛ إذ أنهما تتضمنان معانى لم تكن معروفة وقت نزول القرآن الكريم ، ولكنها عرفت في العصر الحديث ، مما يؤكد أن القرآن الكريم من وحى الخالق، كما جاء عن النبي ﷺ عندما مر على قوم يتفكرون في «الله» فقال «تفكروا في الخلق ولا تتفكروا في الخالق فإنكم لا تقدرون قدره» .

ولو تفكر العلماء المتخصصون كل في مجاله لظهرت أدلة محسوسة كثيرة على وجود الله ، ولظهر التوافق بين العلم والدين ، وحينئذ يحق في العلماء قوله تعالى :

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

وقوله تعالى كذلك :

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

وفي قول رسول الله عليه الصلاة والسلام « لا عبادة كتفكر » ، وقوله « وهل ينفع القرآن إلا بالعلم » ، وستظل في القرآن الكريم آيات كثيرة غامضات تتوالى تفسيراتها بين الحين والحين حتى تقوم الساعة كما جاء في سورة الأعراف :

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ مُّحْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *﴾